انطباعات وافكار من ثورتنا

بقلم الدكتور علي سعد

كانت السيارات التي تقل المجاهدين العائدين من المعركة تمر الواحدة تلو الاخرى في الشارع العريض الذي يمتد أمام بيتنا . وكانت تأتي من الطرف القبلي لشارعنا حيث يبدأ الحي الذي لم يحظ بعد بلفتة البلدية وعطفها . فلا مسحات الزفت تحجب عن وجه طرقاته غبار الصيف او اوحال الشتاء ، ولا الاقنية تمتص المياه الفائضة على ازقته من البيوت المبعثرة على جوانبها كما اتفق كأوجار الجنادب .

وكنا نحس بقدوم كل سيارة قبل ان تطل على شارعنا من هديرها الذي يرتفع فجأة عند المنعطف المرمل الذي يبدأ فيه هذا الشارع . واحيانا كانت تسبق السيارات نغمات الاناشيد الحماسية التي ترتفع بها حناجر الرجال المكدسين في جوفها .

وكان مجرد انطلاق هذه الاناشيد بشيرا بان المعركة كانت في صالح رجالنا . وكان في هذا الدليل ما يكفي لان تنشرح الاسارير وينفرج التقبض الذي أخذ يعصر الافئدة عندما بدأت السيارات تتجه قبل ذلك بثلاث ساعات في الاتجاه المعاكس ، أي نحو ميدان المعركة ، وعندما شرعت طلقات البنادق والرشاشات واصوات الانفجارات القومية العميقة تنطلق متقطعة في البدء ثم متلاحقة ، متواصلة ، وعندما بدأت سيارات الاسعاف ترد من الجبهة بسرعتها الجنونية وبصفاراتها الحادة التي كانت تزيد في توتر النفوس وتشيع الجليد في عروق الناس المتربصين بوجوم على شرفات بيوتهم او في حوانيتهم بانتظار نتائج المعركة .

ولم تكن تلك المعركة كسابقاتها من المعارك التي خاضتها قوات المقاومة الشعبية . فالعدو الذي كانت تواجهه لم يكن افراد الامن اللبناني ولا عصابات شمعون التي كان يدخل في الحسبان مدى قوتها المحدودة ، وعطف قسم كبير من جنودها على قضية الثورة .

ان القوات الشعبية كانت تغامر لاول مرة في معركة منظمة مع الاميركيين المعتدين الذين تقدموا في الليلة الماضية بخطوطهم ورابطوا بدباباتهم حول مفرق طريق هام لا يبعد عن المراكز الشعبية الا بضع مئات من الامتار ، في منطقة الحرج .

ولاول مرة تتواجه القوات الشعبية والقوات الاميركية رغم مضي ما يقارب الشهر على نزول المعتدين على الاراضي اللبنانية . وقد وجدت قوات الشعب في اقتراب الاميركيين من مراكزها الفرصة الثمينة للثأر لكرامة لبنان وانقاذ شرفه من عار الاحتلال الاجنبي ، وبدأت السيارات تحمل فضائل من كل مراكز المقاومة الشعبية في بيروت ، التي اقبلت لنجدة بضعة افراد من مركز الرواس في الطريق الجديدة قيل انهم بدأوا الاشتباك مع دورية اميركية على اول طريق المطار الدولي .

وقد اقبلت النجدات من محلات ابي شاكر والحرج ودار الايتام ومن النويري ومن برج ابي حيدر ومن المصيطبة والبسطه ومن زقاق البلاط ومن الزيدانية وتلة الخياط ومن الخندق الغميق .

وكانت ملامح الاهتمام تبدو على وجوه الابطال المتجهين نحو ميدان المعركة ، وكان في نظراتهم ثبات وعدم التفات للحياة التي توقف نبضها على جانبي الطريق . وكان يبدو ان نظراتهم مقلوبة الى داخل نفوسهم ، مشدودة الى المجهول الذي ينتظرهم بعد لحظات .

وقد اقبل بعض المجاهدين بالاغنيات ، كأنهم قادمون على عرس ، ولكن تلك الاغنيات لم تكن لتزيد نفوس الناس الذين بقوا في بيوتهم او حوانيتهم نصف المفتوحة الا احساسا بعنف العاصفة التي لن تلبث ان تهب وربما تطيح بأولئك الفتيان الشجعان او تتسع وتمتد حتى تدق ابوابهم هم الذين بقوا بعيداً عن المعركة لعدم توفر الاسلحة ...

فالمعركة هذه المرة ، تدور ضد عدو غادر قاهر مزود باسلحة لا حد لقواتها المدمرة وتستطيع ان تطال اية بقعة من بيروت وان تحيلها الى خرائب ...

وقد قبل المسلحون من الشعب خوض هذه المعركة غير المتكافئة . وايدهم الشعب في هذه البادرة التي كانت تهدد بان تمد لهيب الحرب الى كل ركن وكل شارع وكل بيت في بيروت . ولئن بدا الوجوم على بعض الوجوه والترقب واللهفة على الوجوه الاخرى، فان الخوف لم يعرف طريقا الى نفس احد من الاهلين أو المسلحين .

ولا ادل على ذلك من بقاء الناس على شرفات منازلهم وفي حوانيتهم وفي الطرقات يتابعون بافئدتهم وباسماعهم وبكل حواسهم اصداء المعركة المحتدمة على بعد اقل من كيلومتر . وظلت الخطى في الشوارع على انتظامها . ولم تعد ترى الناس يلتصقون بالجدران أو يحنون ظهورهم عند قطع الشارع أو يعجلون في سيرهم في طريق عودتهم

كما كانوا يفعلون في المعارك الاولى ، ولم تعد تسمع اصوات اغلاق الحوانيت تتسارع في كل مكان ، دلالة على عجلة الناس في البحث عن مأمن لهم من الشظايا الشاردة، كما كان يحدث من قبل . لقد استكمل الشعب ثقته بنفسه وبمصائره . فالثورة فولذت اعصابه ، ومجاورة الموت والخراب التي الفها في الاسابيع العديدة التي انقضت على الثورة رفعت الكلفة بينه وبينهما ونزعت من نفسه الرهبة امام الفواجع .

وبدأ الظلام يهبط وشرعت اصوات الطلقات ودوي الانفجارات تخف شيئا فشيئا . وفي نحو الساعة السابعة بدأت السيارات واللوريات المحملة بالمجاهدين تعود الى مراكز انطلاقها .

ولم يحاول احد ان يوقفها ليسمع تفاصيل المعركة او نتائجها . فالمهم انهم عادوا ، واصداء الاغنيات التي كانت تتصاعد قوية من بعض السيارات العائدة ، كانت تشيع الطمأنينة في النفس وتحمل على الاعتقاد بان النصر كان في جانب قواتنا . ولم تكن تخلو تلك الطمأنينة من بعض الكبرياء فقد غسلنا اخيرا العار الذي لحق بلبنان من الاعتداء الاجنبي لقد تحوى رجالنا الجبروت الاميركي الجاثم على سواحلنا وفي مطارنا وعلى دروبنا . واظهروا له إنهم لا يخافون حديده وناره ، وان وطأه ارضنا وتقدمه من خطوط المدينة الثائرة لا يتم دون عقاب ، وجاء العقاب تلك الليلة قاسيا لا رحمة فيه على ايدي فتياننا .

ولكن حلاوة الظفر حملت في قرارتها بذور القلق . فقد حسب الناس الحساب لردة الفعل من الجانب الاميركي وقد اخذوا ينتظرون ان ترد طائرات الاميركيين ودباباتهم ومدافع سفنهم البعيدة المدى على التحدي الجريء الذي وجه لهيبتهم ضربات ساحقة قد تزرع الدمار والموت في كل شارع وكل بيت في العاصمة .

ولكن احدا لم يشعر بالندم على ما حدث في تلك الامسية ، ولم يعد باللوم على المجاهدين لتهورهم في تحدي التنين الاميركي . ان احدا لم يتمن ان يكون بعيداً عن حي الطريق الجديدة في تلك الساعات المشحونة باشد الاخطار. بل على العكس كان الزهو يملأ كل انسان يعيش في الحي الذي كان له شرف المبادرة ببدء المعركة مع العدو . وكان يتردد في النفوس احساس غريب بان اية قوة في العالم لن تستطيع ان تقهر المدينة الثائرة ولا ان تحطم كبرياءها

ومضت الساعات مثقلة بالانتظار . وظلت البيوت على غير عادتها تنبض بالحياة والحركة دليل امعان الناس في السهر ، كأنهم يخشون ان يضيعوا في الرقاد تلك اللحظات الحاسمة من حياتهم ، والتي اكسبها الشعور بالخطر قيمة الساعات الاخيرة من حياة المحكوم بالاعدام .

وبقيت ساهرا كغيري . وجلست في الظلام على الشرفة الشرقية لبيتي ، المحاذية للجبال البعيدة .

وكان القمر يملأ السماء بقرصه الذهبي الذي بدا اوسع واشد توهجا وبهاء من ذي قبل . وكانت قمتا جبل الكنيسة وضهر البيدر الملتان تسدان الافق في البعيد ، وجبال عاليه والمتن المتدرجة حتى مشارف العاصمة ، وكل السطوح الظاهرة من المدينة غارقة في شلالات خضراء باهتة من ضوء القمر تحيل كل المرئيات الى ما يشبه ذكريات باقية من حلم ليلة ماضية ، لكثرة ما يضيع من معالمها وحدودها والوانها .

وامام هذا الطوفان من الضوء والسكون والبهاء ، شعرت بكل شرايين نفسي تتفتح وبقلبي يتمدد ، حتى لكأن قفصه لا يتسع له. لقد احسست بتدفق نهم غريب يدفعني الى التهام اقصى ما يمكن من هذه الوليمة الشهية التي كانت الدنيا تعرضها امام الحواس المتفتحة .

لقد ايقظ الجمال الكوني حب الحياة في كل فلذة من فلذات جسدي . واخذت اتطلع الى السماء والارض المتعانقتين في قبلة عميقة من اضواء القمر والنجوم وكأنني اراهما لاول مرة في عمري .

واخذت الاسئلة تطفو الى زوايا ذهني التي لم يخدرها سحر الليلة القمراء . واخذ حوار داخلي متشابك يدور في جوانب نفسي :

كيف يجوز لك ان تستمتع بجمال الدنيا وان تستطيب الحياة ، واشباح الموت ترود حولك وتدخل بيوت الضحايا الذين سقطوا لساعات خلت والذين قد يسقطون بعد ساعات ؟

ولكن ما ذنبي اذا سقطت الضحايا وان اصاب منجل الموت من اصاب ؟ افليس محتملا ان يصيبني غدا او بعد غد؟

ترى هل يدرك الذين يموتون قيمة الحياة مثلما يدرك الراسخون في العلم ؟

وما علاقة العلم بحب الحياة ؟ وهل تعتقد ان التعلق بالحياة وقف على اصحاب الحواس المرهفة ؟

وهل تجهل ان بين من يحمل السلاح في صفوف الثوار الكثيرين من المثقفين من ادباء ومحامين وغيرهم ؟

قل لي : هل لو تأمل المجاهدون الليلة المقمرة بمثل هذه الكلية وهذا العمق وهذه الكثافة الحسية التي تتأملها بها ، هل كانوا يقبلون على المعركة التي ينتظرهم فيها احتمال الموت بمثل الزهو واللامبالاة التي اقبلوا بها منذ ساعات ؟ وهل كانوا يخوضون المعركة اصلا ؟

بالطبع نعم . فهم قد اختاروا السلوك الذي لا يرفض احتمال الموت منذ ان اختاروا حمل السلاح .

اذن هم لا يدركون قيمة الحياة ، بل لا يفقهون معنى الحياة ولا يقدرون جمالاتها ومباهجها . وما جرأتهم على مواجهة الموت الا ضرب من العمى عن نداءات الحياة ونوع من الجهل بكل الوعود التي تقدمها .

لا يا صاح . فالبطولة ليست كذلك الا بقدر ما يتضمنه العمل البطولي من وعي كامل للاخطار الشديدة التي يتعرض لها المحارب وبقدر ما يدفعه من ثمن باهظ للوصول الى الظفر . والاستعداد الدائم للمجازفة بالحياة قد يكون اكمل تعبير عن شدة التعلق بالحياة .

وكيف ذلك ؟ انك على ما يبدو اصبحت ميالا الى اللعب بالالفاظ . .

لا ، ان كلمتي ليست لعبا ولا لهوا . وانما تقرير لواقع فالانسان الذي يعيش في مجتمع انساني لا يقنع بأي شكل من اشكال الحياة ولا يرضى بان يدفع اي ثمن للحصول عليها . بل هو يصر على ان تتوفر له الحياة على حد ادنى من الشروط والصفات التي لا قيمة ولا معنى للحياة بدون توفرها . ان نعمة الحياة التي يطلبها الانسان الاجتماعي ليست مطلقة وانما مشروطة بنوعيتها وبمدى ما تحققه له من تلبية لحاجاته ورغباته . وقد تتسع هذه الرغبات والحاجات او تضيق وفقا لتطور المجتمع وتعقيد تركيبه ولكن هناك حدا ادنى من الحاجات والرغبات التي لا يستطيع مجتمع انساني أن يتنازل عن ضرورة تحقيقها .

واولى هذه الحاجات حفظ كرامة الانسان وممارسة الحريات العامة والاطمئنان الى عدالة الجهاز الحاكم والى نزاهته واخلاصه في خدمة المجتمع وفي حمايته من اخطار الاعتداء الخارجي .

وعندما تنعدم هذه الضمانات في مجتمع ما ، ينعدم الاطمئنان الى جدوى الحياة وقيمتها ، بل وينعدم الاطمئنان الى امكانية حماية الحياة نفسها .

ومن هنا تنشأ الحاجة الى الثورة ،كل ثورة ، وتولد الانتفاضات ضد كل نظام لا يعرف كيف يحمي الحريات ويصون القانون ويؤمن حفظ كرامة الافراد ، لان كل هذه المفاهيم والمعاني الاجتماعية هي الضمانات التي تصون الحياة نفسها وكل ما يزين الحياة ويكملها ويعطيها طعمها وقيمتها ورونقها .

وهذ الامر يصح على الثورة اللبنانية مثلما يصح على كل ثورة سياسية .

فان السياسة المنحرفة التي اتبعها كميل شمعون وسامي الصلح وشارل مالك والتي ادت الى سلب الشعب اللبناني حرياته وحرمة قوانينه ودستوره وهدمت اسس الوحدة الوطنية بين طوائفه الدينية وفئاته الاجتماعية قد جعلت كل فرد من افراد المجتمع اللبناني مهددا بالسجن والاعتقال والتعذيب او الاغتيال على ايدي العصابات التي سلحها شمعون او على ايدي قوات الامن التي حولها الى ما يشبه العصابات .

وان سياسة الارتباط غير المشروط بالغرب وبالتالي ، باسرائيل ، ومحاولة عزل لبنان عن جاراته وشقيقاته العربيات وحرمانه من حماية القوى العربية قد اقنعت كل لبناني بان حياته ووجوده ورخاءه ومعيشته اصبحت تحت رحمة الغرب واسرائيل ، وبالتالي ان كل ضمانة لارواح اللبنانيين وممتلكاتهم اصبحت مهددة بالانهيار وبوقوع لبنان لقمة سائغة لاسرائيل عندما يشاء الغرب وتشاء اسرائيل .

لذلك حمل اللبنانيون السلاح وفضلوا ان يخوضوا في هذه السنة معركة حرياتهم ووجودهم التي قد يكتب عليهم ان يخوضوها في المستقبل ، في ظروف اسوأ .

لقد غامروا بكل ما يملكون ، بحرياتهم واموالهم ورفاهيتهم وحتى بارواحهم في هذه الاشهر الماضية ، حتى لا يضطروا الى فقدها ولكن على نطاق اوسع عندما تنفذ مؤامرات الخونة والعملاء من حكام العرب بالتواطؤ مع الاستعمار الذي كان يبغي تمزيق الاردن وسوريا ولبنان لحساب ومصلحة اسرائيل وتركيا ودول حلف بغداد .

لقد كانت الثورة مغامرة ، تحتمل الهزيمة او الانكسار ولكن الشعب اللبناني قد قبل الاقدام على هذه المغامرة في وقت اصبحت فيه البوادر على نوايا الاستعمار لتنفيذ خططه على اكثر ما يكون من الوضوح . وقد اظهرت الحوادث ان توقيت الثورة اللبنانية كان موفقا اذ كبح من حدة المؤامرات الاستعمارية التي بلغت ذروة ضراوتها في الاونة الاخيرة ، وعجل في تطوير الاحداث التي ادت الى انتصارات القومية العربية المتتالية بنجاح الثورة العراقية وبظفر الاقتراح العربي في الجمعية العامة وبانضمام المغرب وتونس الى الجامعة العربية ، وبزوال حكم شمعون وبزعزعة حكم الحسين والرفاعي زعزعة لن يفيق منها .

لقد كانت الثورة اللبنانية نصرا للعرب وللبنان لانها فضلت الذهاب الى مهب الخطر بدلا من القعود في انتظاره .

وكل معركة ، مهما كان ضيق ميدانها ، تحتمل هذا الحظ من تلافي خسائر اكبر عندما يهب المحاربون الى مواجهة الخطر في اللحظة المناسبة .

وقد يكون في هذه الحقيقة بعض الجواب على السؤال: كيف يمكن ان يجتمع التعلق بالحياة مع ضرورة المجازفة بالحياة ؟

فالحقيقة اليومية تثبت ان الموت يهرب ممن يطلبه وان لعبة المخاطرة بالحياة اضمن وسيلة لحفظ حياة الفرد وحياة المجتمع ، وتعطي كل لحظة من عمر المخاطر من الكثافة والعمق والغنى ما يعادل عمرا بأكمله .

وكما ان التاريخ الحديث يثبت الترابط الكامل بين حياة الشعوب وتكافلها وتضامنها في المصير بحيث ان انتصار شعب يؤدي الى دعم جبهة الشعوب بكاملها ، وكما ان تطور القومية العربية اثبت ارتباط لبنان بمصائر الدول العربية ، كذلك اظهرت الثورة اللبنانية بمسبقاتها ان كل اعتداء على اي لبناني وعلى حياته يشكل تهديد لحياة كل اللبنانيين وكل حرياتهم . فلازاحة هذا الكابوس الذي يهددهم في كل لحظة ثار اللبنانيون .

لقد غامروا بالحياة ليوهبوا الطمانينة الدائمة على حياتهم وحياة مواطنيهم وحياة العرب ، ولينقذوا ما هو اسمى واثمن من الحياة : الحرية والكرامة والامن من كل خوف .

علي سعد